٣ – الفـــن

للكاتب الفرنسي بول هيزيل

بقلم الدكتور محمد بهجت

يرى الفنان كل ما في الطبيعة جميلا

يوجد بمرسم رودان الكبير بمَيْدُون تمثال صغير على جانب كبير من الدمامة المروعة ، استقى مثالنا العظيم موضوعه من قصيدة ڤيلون السماة La Belle Heaulmiere . كانت الحظية تشع يوما ما شبابا وجمالا ، أما الآن فهي عجوز شمطاء متهدمة تنبو عنها العيون . كانت مختالة فخورة بحسنها وروائها فاذا بها اليوم تُغص بالخجل من بشاعتها .

وهـذه ترجمة بعض الأبيات التي ساقها ڤيلون على لسان الحظية البائسة .

« آه أيها الهيرم المتعاظم الخوّان ، لم أذللتني هكذا سريعاً ، ولم أمسكتني هكذا حتى لا أستطيع أن أضرب ، فكنت أقضي بضربة واحدة على آلامي » .

هنا تبع المثالُ الشاعرَ خطوة فخطوة . فتلك العجوز الشمطاء التي تكرش جلدها حتى صار أكثر تكرشا من المومياء تحزن على بلى جسدها . تراها جالسة مقوسة تنظر في يأس وألم إلى ثديها الذين ضمرا ضموراً يثير الشجن ، وإلى جسدها الذي تجمد وتقبض تقبضا بشعاً ، وإلى ذراعيها وساقيها التي أصبحت عقداء كأصول الكرم أو هي أعقد . وثمت بضعة أبيات أخرى ساقها الشاعر على لسان الحظية أيضاً .

« عند ما أفكر بذهن كليل فيما كنت عليه بالأمس ، وفيما أنا عليه اليوم ، عندما أرى كيف استحلت هكذا : مسكينة بائسة مقددة نحيفة ، يتملكني الأسى . أين جبيني الناصع وشعري الذهبي وكتفاي الجميلتان — وكل ما كان فيّ وقد خلق للحب ؟ هذه هي نهاية الجمال الانساني ! وتلكما الذراعان النحيلتان ، واليدان المعروقتان ، تلكما الكتفان الحدباوان ، ذلكما الثديان والعجزان وتلكما الساقان ، خفتا وأصبحتا منقوطتين كأنها الهير المحشو » .

وهنا لا نرى المثال يقل إدراكا للواقعية عن الشاعر ، بل نرى

يتجهوا في أدبهم إلى السطحية والعناية فيه بالشكل أكثر من عنايتهم بالموضوع ، ثم يحمد الله أن يرى أدباءنا يتجهون اتجاهاً واضحاً إلى الموضوع أكثر من الشكل .

فهل كان أدباؤنا من غير الناشئين المتعلمين في هذا العصر ؟ فمن الذي أرشدهم ألا يتجهوا في أدبهم إلى السطحية وأخذ يحثهم على العناية بالموضوع دون الشكل ، وهم إنما درسوا الأدب قاصراً على الشعر والنثر الفني المصنوع ، وهو الذي يعيبه الأستاذ احمد أمين على الأدباء .

إنني لا أنكر أنه قد أتى على الأدب حين من الدهر مال فيه الكتاب إلى العناية بالأسلوب أكثر من عنايتهم بالموضوع ، بل أسرفوا في ذلك حتى عيب عليهم ، ولكن هذا النوع من الكتاب أقلية إذا قيسوا بغيرهم من أدباء اللغة العربية ، وقد أخذ عليهم إسرافهم في العناية بالألفاظ وتنميقها أكثر من عنايتهم بالأفكار وتوليدها والموضوع ودراسته ؛ فلم يكن لما عيب عليهم أثر إلا بمقدار ما تظهر بدعة غير مستحسنة في عصر من العصور ، ثم لا تلبث أن تهمل لما يشق فيها على الناس ، على أنه كان لأدب هؤلاء موضوعه الذي يحله محله من مباحث الأدب العام .

ولم يحل وجود هؤلاء الكتاب الشكليين في عصور الأدب أن نفهم الأدب على حقيقته في الشعر والنثر المشبه الشعر في عصورنا هذه فيظهر فينا الكتاب الذين يعتمدون على الموضوع في أسلوب ، لا على الأسلوب له صورة موضوع .

عبد اللطيف محمد ثابت

على النقيض من ذلك أن البشاعة التي يثيرها بهذا التمثال أوقع في النفس من أبيات ڤيلون الجافية . ترى ثنى جلدها يتدلى على الهيكل العظمى في ضعف واسترخاء ، والأضالع تبرز من تحت الصفاق أو الرق الذي يغطيها ، ويبدو الجسم كله كأنه يرتعد أو ينكمش ويتضاءل . ومع ذلك ترى ألما عميقاً ينبعث من ذلك الجسد البالي المشوه المؤلم . وذلك لأن ما نشاهد منه هو الألم البالغ لنفس شغفها حب التبأب والجمال الخالد فأصبحت تنظر بيأس إلى الوعاء القبيح الدميم الذي يحويها . انه التناقض البين بين الكائن الروحي الذي يتطلب اللذة الخالدة وبين الجسد الذي يبلى وينحل ويؤول إلى الفناء . تهلك المادة وعوت اللحم ، أما الأحلام والآمال فخالدة . وهذا ما أراد رودان أن نفهمه . هذا وإني لاأعتقد أن فنانا آخر صور لنا الهيرم بمثل هذه الفظاعة الفجة ، اللهم إلا واحداً . فانك لترى على مذبح كنيسة بفلورنسا تمثالا عجيبا من صنع دونا تللو . ترى عجوزا عارية أو هي متشحة بشعرها الطويل الرقيع الذي يتشبث بجسدها المتهدم الفاني . إنها القديسة مجدولين في الصحراء وقد قوست السنون ظهرها ، تنذر إلى الله الرهبوت الصارم الذي ستأخذ به جسدها جزاء وفاقا لما أسبغته عليه من رعاية في الماضي . ولقد بلغت الصراحة الفطرية بهذا الفنان الفلورنتي مبلغا عظيما بحيث لا يتسنى لأحد أن يدانيه فيها ، حتى ولا رودان نفسه . ولكنا نرى إلى جانب ذلك أن الشعور في العملين مختلف كل الاختلاف ، فبينما نرى القديسة مجدولين تبدو في توبتها أكثر إشراقا كلما أحست أنها تزداد دمامة ، نرى من الناحية الأخرى الحظية الشمطاء تهلع عند ما ترى نفسها أشبه شيء بالجثة الهامدة . وعلى ذلك فالنحت الحديث أعظم وقعاً وأفجع في تأثيره من النحت القديم .

وفي أحد الأيام درست تمثال رودان هذا لحظة ثم قلت له في هدوء :

« أيها المعلم ! لاأظن أحداً يعجب بهذا التمثال اكثر مني إعجابي به . ولكن أرجو ألا يتملكك الامتعاض إذا ما أطلعتك على الأثر الذي تحدثه مشاهدته في زائري متحف اللوكسمبورج ، وفي السيدات خاصة » .

« لأكون شاكراً لو تفعل ذلك » .

« حسن . إن النظارة لتقرمنه قائلة : آه ، ما أبشعه ! وكثيراً ماشاهدت بعض السيدات يتقينه بأيديهن حتى لايرونه » فضحك رودان ملء شدقيه وقال :

« لابد أن يكون عملي من الوضوح والصراحة بحيث يحدث مثل هذا الأثر البين . ولا ريب أن هؤلاء الناس ممن يرهبون الحقائق الفلسفية المرة . غير أن كل مايعنيني من الأمر ويهمني هو أن أقف على آراء أولئك الذين وهبوا الذوق الحسن . ولقد سرني أن أظفر بمدحهم لحظيتي العجوز . ان مثلي كمثل ذلك المغني الروماني الذي أجاب على صخب الجماهير : إني أغني للنبلاء فقط ، أو بمعنى آخر للهواة الذين يفهمون ويتذوقون » .

يتبادر إلى ذهن السوقة أن ما يرونه قبيحاً في الحياة لا يليق أن يكون موضوعا للفنان . يودون لو يمنعوننا من إظهار ما يسوؤهم من الطبيعة أو يقذى أعينهم ؛ وهذه غلطة شنيعة يغلطونها . إن ماقد يسمى عادة قبيحاً في الطبيعة يمكن أن يكون لدى الفن عامرا بالجمال . وفي الواقع نسمي قبيحاً كل ما كان مشوها أو مريضا أو يشعر بعرض ، أو ما كان ضعيفاً أو مبتلى ، أو ما كان منافيا للمألوف الذي هو إمارة وشرط من شروط الصحة والقوة . فالأحدب قبيح ، والأعرج قبيح ، والفقر في الأسمال البالية قبيح . وقبيح أيضاً روح الرجل الفاجر وسلوكه ، والرجل الخبيث المجرم ، والرجل الشاذ الذي يكون بلية على المجتمع ، وقبيح أيضاً روح الذي يفتك بوالديه ، وروح الخائن ، وروح كل دنيء المطامع . ومن الصواب تسمية الناس أو الأشياء التي لانتوقع منها سوى الشر بتلك المسميات الكريهة . ولكن دع فنانا مبرزا أو كاتباً نابها يتولى بفنه قبحا واحداً أو أكثر مما ذكر فسرعان ما يتحول في يديه ؛ إذ ينقلب بلمسة من عصاه السحرية إلى جمال رائع . إن هذا إلا كيمياء ، إنه السحر المبين !!

دع ڤيلاسكويز يصور سيباستيان ، Sebastian قزم فيليب الرابع ، ملك إسبانيا ، تراه يحبوه بتلك النظرة المؤثرة التي نقرأ فيها على الفور ماتنطوي عليه نفس هذا المخلوق التعس من الأسرار

المؤلمة ، ذلك المخلوق الذى ألجأته حاجته للعيش إلى أن ينزل عن كرامته الإنسانية فيصبح ألعوبة أو سخرة من المساخر الحية . وكلما زادت لذعة الألم فى نفس ذلك المخلوق البائس زاد جمال عمل الفنان .

وليصور فرنسوا ميليه فلاحاً يتـــكىء على فعال[1] فأسه ليستريح لحظة ، رجلا بائساً أضناه التعب ولفحته الشمس ، غبياً كالحيوان الأعجم الذى أذهلته الضربات فيلدم . وما هو إلا أن يظهر فى تعبير هذا الشقى البائس ذلك الاستسلام السامى للألم الذى فرضه علينا القدر حتى يجعلنا نرى فيـــه الرمز العظيم للانسانية كلها .

ثم ليصف لنا بودلير Beaudelaire جثة مقرّحة ، قذرة متلزجة ينخر فيها الدود ، ثم دعه يتخيل خليلته المحبوبة فى هذه الحالة المخيفة الممضة ؛ فلا يمكن والله أن يدانى شىء فى الروعة والفخامة صورته التى يضع فيها جنباً إلى جنب هذا الجمال الذى نرجو له الخلود ، وذاك الفناء المروع الذى ينتظره . وهاك أشعار بودلير

« ومع ذلك فستصبحين مثل هذا يوماً ما ، مثل هذه الوخامة التى تتقزز منها النفس ، أنت يانجم عينى ، أنت ياشمس طبيعتى . آه يا ملاكى ويا غرامى !

« نعم ياملكة الحسن ، ستكونين هكذا بعد القداس ، عندما تلحدين تحت الحشائش والأزهار حيث تبلين بين العظام . وعندئذ يا حبيبتى خبرى الديدان التى تلتهمك بالقبل أننى — على الرغم منها ومن كل شىء — قد احتفظت بهيكل حى المقدس وروحه الذى فنى وباد » .

ومثل هذا ما كان من شكسبير عند ما وصف ياجو Iago أو رتشارد الثالث . وعندما صور راسين Racine نيرو ونرجس Nero and Narcissus ، كذلك يمكن أن ينقلب القبح الخلق موضوعا رائع الجمال إذا ما فسرته عقول صافية راجحة نفاذة .

وفى الواقع نرى أن الجميل فى الفن هو ماله شخصية . فالشخصية هى العنصر الضرورى لكل شىء طبيعى ، جميلا كان أو قبيحاً ، أو هى الحقيقة المزدوجة كما يجب أن نسميها . هى الحقيقة الداخلية تفصح عنها الحقيقة الخارجية ، هى الروح والشعور والأفكار تعبر عنها قسمات وجه أو أفعال الإنسان وإشاراته أو ألوان السماء أو خطوط الأفق ...

يرى الفنان العظيم أن لكل شىء فى الطبيعة شخصية لأن نظرته الفاحصة الصائبة تستجلى ما غمض وخفى من معانى الأشياء جميعها . ولربما كان لما نحسبه بشعا دميما من الشخصية أكثر من ذلك الذى نراه بسيما وسيما . وذلك لأن الحقيقة الداخلية قد تسطع فى أسارير سحنة مريضة ، أو فى نواحى وجه خبيث ، أو فى كل ما هو مشوه أو عفن ، سطوعا جلياً أكثر مما فى القسمات الصحيحة العادية .

وطالما كانت قوة الشخصية وحدها هى التى تظهر الجمال فى الفن ، فكثيراً مايحدث أنه كما قبح الشىء فى الطبيعة زاد جماله فى الفن . فلا يوجد فى الفن قبيح اللهم إلا ما خلا من الشخصية ، أى ذلك الذى تجرد من الحقيقة الداخلية أو الخارجية .

والقبيح فى الفن هو كل زائف غير طبيعى ، كل ما عنى بحسن المظهر دون التعبير ، كل ما كان هوائياً متقلباً ومتصنعاً ، كل ما ابتسم من غير باعث على الابتسام ، أو تثنى من غير ما سبب ، كل ما كان بغير روح أو حقيقة . أو كل ما كان مظهراً للحسن والجمال فقط ، وبالجملة هو كل ما كان كاذباً .

وعند ما يحاول الفنان أن يحسن الطبيعة فيضيف اللون الأخضر إلى الربيع ، والوردى إلى شروق الشمس ، والقرمزى إلى الشفاه الصغيرة ، يخلق بعمله هذا القبح لأنه يكذب ، وكذلك عندما يخفف من حدة الألم أو يلطف من تهدم الشيخوخة أو من بشاعة التحريف أو التصحيف ، وعندما يحاول تنسيق الطبيعة فيقنعها وينكرها ويلطفها كيما تسر السوقة الجهلة ، فهو يخلق القبح لأنه يخشى الحق .

كل ما فى الطبيعة جميل فى عينى أى فنان خليق بهذا الاسم ، لأن عينيه اللتين تقبلان الحقائق الخارجية فى شجاعة ، تقرآن الحقائق الداخلية كما لو كانتا تقرآن فى كتاب مفتوح . وما عليه إلا أن ينظر فى وجه إنسان ما فيقرأ أغوار نفسه بحيث لا يمكن أن تخدعه قسمة من قسماته . والإخلاص كالتصنع كلاهما شفاف لا يستر ما تحته ، نخط فى الجبين ، أو رقعة خفيفة من الحاجب ، أو لمحة من العين ، كل هذه تكشف له عن كل أسرار القلوب وتطلعه على خفاياها

(١) فعال الفأس هراوته

كذلك يستطيع الفنان أن يدرس ذهنيـة الحيوان الحبيثة ، ويقرأ فى عينيه وحركاته وسكناته مزيجاً من الشعور والأفكار والذكاء الأبكم والأحاسيس البدائية .

وهو فضلا عن ذلك صفى الطبيعة وأمينها ؛ فتكلمه الأشجار والنباتات كما لو كان صديقها ، وتحدثه أشجار البلوط القديمة العقداء عن حدبها على الإنسان الذى تظله تحت أفرعها الوارفة الظلال . وتخاطبه الأزهار باهتزاز سوقها الرشيقة ، وبغناء ألوانها الشجى. إن كل زهرة وسط الخضرة لكلمة طيبة تخاطبه الطبيعة بها .

والحياة عنده متاع مقيم ، وسرور مستديم ، ونشوة جنونية . ولكنه لا يرى كل شىء فى الحياة مستطابا ، لأن الآلام التى تنتابه وتعتور أصدقاءه تتعارض مع تفاؤله وأمانيه تعارضاً مؤلماً ، ومع ذلك فكل شىء عنده جميل لأنه يمشى دائماً فى ضوء الحق النفسانى.

نعم ! إن الفنان العظيم ، وأقصد به الشاعر والمصور والمثال ليجد ، حتى فى الآلام وموت الأحباب ، وفى خيانة الأصدقاء بعض ما يغمره بفيض عجيب من السرور ولو شابته مرارة بشعة .

وقد تمر به فترات يكون قلبه أثناءها فريسة للآلام ومع ذلك نرى اللذة المريرة التى يكابدها من تفهم وتفسير تلك الآلام أقوى من الآلام نفسها وأرجح . وهو يقدس أغراض القضاء فى كل كائن حى ، ويلقى على آلامه وجراحه الدامية نظرة ملؤها التقدير والاهتمام ، نظرة الرجل الذى قرأ أحكام القدر . حتى إذا ما خانه حبيب ترنح تحت الضربة ، ولكنه سرعان ما يثبت على قدميه ويستقر ، ثم يرى ذلك الخائن مثلا طيباً للوضاعة والحقارة ، ثم إنه يرحب بالعقوق لأنه يجد فيه ما يصقل نفسه .

وكثيراً ما يكون وجده وهيامه جامحاً مخيفاً ، ولكن فى ذلك السعادة على كل حال ، لأن فيه التقدير العميق الثابت للحق والصدق.

فعندما يشاهد الناس يقتل بعضهم بعضاً فى كل مكان ، وعندما يرى الشباب الغض يذبل ويذوى ، وكل القوى العاملة تضمحل ، وكل النبوغ يخبو ، وعندما يواجه الإرادة العليا التى تملى تلك القوانين الصارمة وتفرضها على الكائنات ، تراه أكثر ما يكون اغتباطا بمعرفته ، سعيداً أيما سعادة إذ يستولى عليه حبه للصدق من جديد .

محمد بهجت

فى طريق الحياة . .

للأستاذ عبد القادر القط

فى طريقٍ مِن لَقى الأبناء، والصرعى سُواه (١)
وفضاءٍ لم تعانق أرضَه يوماً سَماه .
مُفرَعاً ترتجع الأبصارُ حسرَى عن مَداه .
أشرب الأرضَ طليحاً تحت أعباء الحياه
وشبابٍ لم يمتّع بالشباب .

* * *

أغتدى فى زحمة الأطماع مشدوه الرّجاء .
وأرودُ الودَّ فى دنيا من الود خلاء .
مفردَ القلب وللقلب حنينٌ واشتهاء .
ظامئ الروح وللنبع بأسماعى غناء .
من وراء الغيب من خلف الحجاب .

* * *

أغتدى فى مهمه الدنيا ومالى من رفيقْ .
غيرَ روحٍ سادر النجوى وقلبٍ لا يفيق
كلما أوغلتُ فى القفر تراءت لى بروق .
وامضاتٌ بأمانىّ كأطياف الشروق .
بعد ليلٍ مدلهمٍّ وضباب .

* * *

طالما أدركتُ أن البرق خلاّبٌ جَهام
ورأيتُ القطرَ محبوساً بأطباق الغمام .
غير أنى كلما راودَ أجفانى المنام .
قذفت بى ظامئاتٌ من رِغابى للأمام .
ولقد ينجى من اليأس السراب .

* * *

(١) اللقى الشىء المطروح . والسوى أعلام الطريق